الدكتور كاصد ياسر حسين

منهج الجلالين في تفسير القرآن

القسم الثاني *

* نشر القسم الأول من البحث في العدد الخامس من هذه المجلة لسنة ١٩٧٤

للجلالين في تفسيرهما منهج نحوي واضح متميز . وذلك :

١. انهما قد يعربان من الآى الفاظا أو تراكيب أو جملا . فيذكران الوجه الاعرابي الذي تدل عليه وتحتمله . وغالبا مايكون الوجه فرداً لايحتمل الاعراب سواه . كقول السيوطي في وقوفه عند قوله تعالى : «واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما انزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم » (١) : « ويكفرون» : الواو للحال ...« وهو الحق» حال : « مصدقا »حال ثانية مؤكدة »(٢) فهو يبين نوع الواو في الآية الكريمة ثم نوع الحال الثانية فيها ، فيشير إلى انها مؤكدة تمييزاً لها من الحال المبينة او المؤسسة (٣) .

فاذا احتمل الاعراب وجهين متساويين في القوة ذكرهما دون الاشارة إلى ضعف أحدهما أو ترجيح أحدهما على الآخر . فالسيوطي يرى أن « هاروت» في قوله تعالى : « وما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت»(٤) : « بدل . أو عطف بيان على الملكين » (٥) فهذه التسوية في الاعراب بين البدلية وعطف البيان ، ترجع إلى ان الاتباع لايمنع — بعد القول بالبدلية — من جعل هاروت عطف بيان لأنه ليس مضمرا ولا تابعا لمضمر ، وليس مخالفا لمتبوعه في التعريف أو جهله أو تابعا لجملة

---

(١) البقرة : ٩١

(٢) تفسير الجلالين ص ١٤

(٣) ينظر تقسيم الحال الى مؤكدة . ومبينة او مؤسسة ، في : مغني اللبيب عن كتب الاعاريب لابن هشام ٤٦٥/٢ .

(٤) البقرة : ١٠٢ .

(٥) تفسير الجلالين ص ١٥ .

او فعلا او تابعاً لفعل وما إلى ذلك من الشروط التي يجب توفرها في عطف البيان . (١)

فان كان هناك وجهان من الاعراب أحدهما راجح – عندهما – والآخر مرجوح . ذكر الراجح أولا وأورد المرجوح بصيغة التضعيف « قيل» بعد ذلك . فمن ذلك مابينه المحلي في تفسير قوله تعالى: «ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم » (٢) إذ قال : «ولو أنهم»: أنهم في محل رفع بالابتداء.وقيل: فاعل لفعل محذوف مقدر أي : ثبت. فذكر أولا رأيه في محل المصدر المؤول من ان ومعموليها من الاعراب مبينا انه الرفع على الابتداء . ثم ذكر بعد ذلك ماقيل فيه من وجه إعرابي آخر ، وهو كونه فاعلا لفعل محذوف تقديره : « ثبت » . فكأنه قيل ولو ثبت أنهم صبروا لكان خيرا لهم .

٢. والأحكام النحوية عندهما تابعة للمعنى وليس المعنى تابعا لها . وهذا هو المنهج السليم الذي ينبغي الالتزام به في إعراب القرآن الكريم وعليه المفسرون الكبار والنحاة الحذاق من مثل الطوسي والزمخشري وأبي حيان الاندلسي وابن هشام صاحب المغني .

فاللام في «ليحملوا» من قوله تعالى : « واذا قيل لهم ماذا انزل ربكم قالوا اساطير الأولين .ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ..»(٣) لام العاقبة فيما يقرره السيوطي (٤) وليست لام التعليل . لأنهم لم يقصدوا بما فعلوه أن يتحملوا أوزارهم يوم الحساب . و (من) في قوله تعالى فاصبركما صبر اولو العزم من الرسل» .(٥) للبيان وليست للتبعيض « لأن

(١) تنظر هذه الشروط التي يتميز بها عطف البيان من البدل في مغني اللبيب ٢/٥٥٤ وما بعدها.

(٢) الحجرات : ٥.(٣) النحل : ٢٤-٢٥. (٤) تفسير الجلالين ص ٢٢٢. (٥) الاحقاف : ٣٥ .

الرسل كلهم ذوو عزم» (١) فيما يرى (٢) وهو وجه في تأويل الآية(٣) وان كان قد ذكر بعد ذلك أن هناك من يجعلها للتبعيض على أساس أن ليسوا جميعاً ذوي عزم ، بل منهم من هم ذوو عزم ومنهم من ليسوا الرسل كذلك . و (من) في قوله تعالى : « وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين » (٤) للبيان أيضا عنده (٥) وليست للتبعيض . وواضح أنه يراعي المعنى في توجيه هذه الاداة لأن القرآن كله شفاء ورحمة وليس بعضه كذلك .

٣. وعني الجلالان بالعوامل والمعمولات فاشار الى العوامل اللفظية والمعنوية في غير موضع من تفسيرهما . فالمحلي يبين العامل اللفظي في ظرف الزمان « يوم » الوارد في قوله تعالى : « فتول عنهم يوم يدع الداع الى شيء نكر . خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر » . (٦) فيقول : « وناصب يوم يخرجون » . (٧) والسيوطي يشير الى العامل نصب الحال في قوله تعالى: «وهذا صراط ربك مستقيما فيبين أنه معنوي اذ يقول : «مستقيماً » (٨) : لاعوج فيه . ونصبه على الحال المؤكدة للجملة . والعامل فيها معنى الاشارة » . (٩) .

٤. وتفسير الجلالين يفيض بالمصطلحات النحوية التي كانت سائدة في عصورهما وفي العصور التي سبقتهما كمصطلح « البناء للمفعول » في مقابل مصطلحنا الحديث « البناء للمجهول » ومصطلح « البناء للفاعل» مقابل المصطلح

---

(١) أشهر الاقوال والمعتمد منها ، ان ذوي العزم من الرسل خمسة : نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام .وسموا بذلك لأنهم أتو بشرائع ناسخة لشرائع من تقدمهم من الانبياء . انظر : الطوسي : التبيان ٢٨٧/٩ والطبرسي : مجمع البيان ٢٥/٢٦ والصاوي في حاشيته على الجلالين ٨٤/٤ .

(٢) تفسير الجلالين ص ٤٢٦ . (٣) الطوسي : التبيان ٢٨٧/٩ . (٤) الاسراء : ٨٢ .

(٥) تفسير الجلالين ص ٢٤٠ .

(٦) القمر : ٦-٧ . (٧) تفسير الجلالين ص ٤٤٧ . (٨) الانعام : ١٢٦.

(٩) تفسير الجلالين ص ١١٨.

المعروف « البناء للمعلوم» . (١) وكقول المحلي في إعراب « فضلا » من قوله تعالى : « فضلا من الله ونعمه » (٢) : « مصدر منصوب بفعله المقدر »(٣) يريد: انه مفعول مطلق نصب لنيابته عن فعله المحذوف «أفضل».
والتفسير لايخلو من التعبيرات النحوية الدقيقة التي يقع جزء منها في دائرة؟ «علل النحو » أو « فلسفته » بتعبيرنا اليوم كقول السيوطي : « ونفي مقاربة الفعل أشد من نفيه » (٤) وذلك حين فسر قوله تعالى : « فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا » . (٥) ومراده : ان في نفي فعل المقاربة « يكادون » دلالة أكبر على عدم فقه الكافرين مما لو نفينا الفعل « يفقهون » نفسه مباشرة .

ولقد كانت هذه المقدرة النحوية التي عرفناها للسيوطي في تفسير الجلالين إرهاصا لدراساته الشهيرة في النحو وأصوله ورجاله من بعد فيما يبدو . على نحو مانرى في « همع الهوامع » و « الاشباه والنظائر» و « الاقتراح» و « بغية الوعاة» وغيرها .

٥. وعني تفسير الجلالين عناية واضحة بحروف المعاني وبخاصة حروف الجر . فنص على معانيها المختلفة من تبعيض وبيان والصاق ومعية وملك وغيرها. كما عني بالحروف التي قيل بزيادتها في التنزيل مثل«ما» و «من» و «الكاف»(٦) فلم ير بأساً من القول بزيادتها،مع ان من المفسرين من توقف أحياناً عن القول بهذه الزيادة ،وحملها محملا ينأى بها عن ذلك ما وجد اليه سبيلا. ومن هؤلاء محمد بن جرير الطبري(ت ٣١٠هـ) ، الذي بين في وقوفه عند آية البقرة : (٧) « أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها ..» ،

(١) ينظر تفسير الآية ١١ من سورة يونس ص ١٧٠ والآية ٢٢ من سورة الرحمن ص٥٠٤.
(٢) الحجرات : ٨ .
(٣) تفسير الجلالين ص ٤٣٥ . (٤) تفسير الجلالين ص ٧٥/
(٥) النساء : ٧٨ .
(٦) ينظر القول بزيادة « ما» في البقرة : ٨٨، ص١٣من تفسير الجلالين، وزيادة «من» في الأنعام : ٣٨ ، ص ١٠٨،و «الكاف» في البقرة : ٢٥٩، ص ٣٧. (٧) آية ٢٥٩ .

أن الكاف ليست زائدة ، بل هي أصيلة في التعبير ، إذ عطف « أو كالذي » على قوله « الى الذي حاجّ إبراهيم » المتقدم في قوله قبل ذلك : « ألم تر الى الذي حاجّ إبراهيم في ربه » . (١) وعلل ذلك بأن العبارتين وان اختلف لفظاهما ، الا أن إحداهما جاز أن تعطف على الأخرى « لتشابه معنيهما ، لأن قوله : ألم تر الى الذي حاج إبراهيم في ربه ، بمعنى هل رأيت يامحمد كالذي حاج إبراهيم في ربه ، ثم عطف عليه بقوله : أو كالذي مرّ على قرية ، لأن من شأن العرب العطف بالكلام على معنى نظير له قد تقدمه ، وان خالف لفظه » . (٢) وبهذا الاعراب أخذ غير واحد من المفسرين والنحويين ، كأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (٣) (ت٤٦٠هـ) ، وأبي البركات كمال الدين بن الأنباري (٤) (ت٥٧٧هـ) ، على حين جعل السيوطي هذه الكاف زائدة عندما عرض لتفسير الآية ، (٥) وهو وجه ذكره ابن الأنباري أيضاً مع الوجه الذي أسلفناه ، (٦) ولكنه ليس بالوجه الراجح مادام في الامكان حمل الكاف على الأصالة .

٦. والمذهب النحوي الذي تبناه الجلالان في تفسيرهما هو المذهب البصري، ويعود ذلك الى شيوعه في زمانهما .ومن دلائله ماأورده السيوطي في تفسير قوله عزّ وجل : « وان امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً »، (٧) فقال : « وان امرأة : مرفوع بفعل يفسره خافت » . (٨) وهذا هو مذهب البصريين في إعراب الاسم المرفوع بعد « إن » و « إذا» و « لو » الشرطيات ، إذ هم يرون أنه مرفوع محذوف بفعل يفسره المذكور بعد ذلك الأسم المرفوع . في حين يرى الكوفيون ان الاسم فاعل للفعل المذكور،أو على حد تعبير ابي البركات الأنباري (٩) :

---

(١) الشورى : ١١ (٢) الطبري : جامع البيان عن تأويل آى القرآن ١٩/٣ . (٣) التبيان في تفسير القرآن ٣٢٠/٢. (٤) البيان في غريب اعراب القرآن ١٧٠/١ . (٥) تفسير الجلالين ص ٣٧ . (٦) البيان في اعراب غريب القرآن ١٧٠/١ . (٧) النساء : ١٢٨

(٨) تفسير الجلالين ص٨١ . (٩) الانصاف في مسائل الخلاف ٣٢٣/٢. وذهب الاخفش ـ من البصريين ـ الى انها مبتدأ ، انظر : معاني الحروف للرماني ص ٧٤.

م/٢٤/آ

« يرتفع بما عاد اليه من الفعل من غير تقدير فعل». فليس هناك من تقدير في الكلام ولا حذف فيه على رأيهم .

ومن دلائل اخذهما بمذهب البصريين في النحو ، جعل المحلي لأن ومعموليها في قوله تعالى : « ولو انهم صبروا حتى تخرج إليهم » ، في محل رفع بالابتداء(١)، اذ هو رأي البصريين ومنهم سيبويه ، على حين أعربها الكوفيون فاعلا (٢)، ووافقهم المبرد والزجاج من البصريين . (٣) وقد ذكر المحلي رأي الكوفيين بصيغة التضعيف « قيل » فقال بعد إيراد رأي البصريين الذي بيناه آنفاً : « وقيل : فاعل لفعل محذوف مقدر ، أي : ثبت » (٤) ، وهذا يعني – مع اختياره لرأي البصريين – ان رأي الكوفيين مرجوح عنده .

٧. ولابد من الاشارة الى ان المباحث الصرفية تحتل مكاناً بيناً في تفسير الجلالين ، وتتناول ظواهر وموضوعات صرفية متنوعة ، كظاهرة الاعلال والابدال واوزان الأفعال ومعانيها والادغام وما الى ذلك .

فمن مثل الاعلال ماورد في تفسير قوله تعالى : « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا » (٥) اذ نجد السيوطي يقول : « واذا لقوا : أصله لقيوا ، حذفت الضمة للاستثقال ، ثم الياء لالتقائها ساكنة مع الواو » . (٦)

ومن مثل البحث في أوزان الأفعال تفريقه معنوياً بين « نزل » و « أنزل » في وقوفه عند قوله تعالى : « نزّل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل » . (٧) إذ قال : « وعبّر فيهما – يريد بالتوراة والانجيل – بأنزل ، وفي القرآن بنزّل المقتضي للتكرير ، لأنهما أنزلا دفعة

---

(١) تفسير الجلالين ص ٤٣٥ عند تفسير الآية ٥ من الحجرات. وانظر الرأي البصري للسيوطي في حذف جواب (لما) في ص ١٣

(٢) ابن هشام : مغني اللبيب ١/٢٦٩– ٢٧٠ . ولم يعرض الفراء لاعراب الآية في معاني القرآن ٣/٧٠ عند تفسير سورة الحجرات . (٣) مغني اللبيب ١/٢٧٠ .(٤) تفسير الجلالين ص ٤٣٥ . (٥) البقرة : ١٤ . (٦) تفسير الجلالين ص ٤. (٧) آل عمران : ٣.

واحدة بخلافه » . (١) يريد : أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة كهذين الكتابين ، بل انزل منجماً على مدى عشرين سنة أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين ، بحسب الخلاف في ذلك ، (٢) ولهذا عبر عنه بالفعل « نزل » الذي يفيد التكثير والتكرير .

ولم يكتف الجلالان بذكر الظواهر الصرفية الواردة في الآيات الكريمة بل شفعا ذلك بتبيين عللها أحياناً أو بعبارة حديثة فلسفتها . فمن ذلك علة جمع المثنى عند إضافته إلى ضمير المثنى ، كالذي ورد في قوله عزّ وجل : « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما» (٣) ،فقد علل المحلي جمع القلوب بدلاً من تثنيتها بتوخي المتكلم التخفيف عند اجتماع اللفظين اللذين يبدوان كالكلمة الواحدة ، أو على حد تعبيره « لاستثقال الجمع بين تثنيتين فيما هو كالكلمة الواحدة »(٤).

ومما أسلفناه يتبين أن تفسير الجلالين — على إيجازه — قد عني بالنحو والصرف عناية طيبة ، قلما يعني بها تفسير موجز مثله . وهذا يعود إلى أن كلاً من الجلالين : المحلي وتلميذه السيوطي نحوي .

المنهج البلاغي :

تأخذ البلاغة دورها في تفسير الجلالين ،وتحتل مكاناً بيّناً فيه ،وقد تناولت علوم البلاغة الثلاثة المعروفة المعاني والبيان والبديع . ونود أن نشير إلى أظهر المباحث المتعلقة بهذه العلوم في التفسير دون أن نعمد إلى استقصائها ،لأن ذلك ليس غرضنا في هذا البحث . إذ أننا ندرس البلاغة في التفسير في إطار دراستنا لمنهج مؤلفيه الجليلين ،في تحريره .ولنبدأ بما يبدأ به في الدراسات البلاغية عادة وهو علم المعاني : فنذكر من هذا العلم :

---

(١) تفسير الجلالين ص ٤٢ .

(٢) الزركشي : البرهان في علوم القرآن ٢٢٨/١ والسيوطي : الاتقان في علوم القرآن ٣٩/١ — ٤٠ .

(٣) التحريم : ٤ . (٤) تفسير الجلالين ص ٤٧٦ .

الاشارة :

للاشارة في تعبير القرآن معان يلحظها الجلالان . من تلك المعاني «التعظيم »، كما في قوله عز وجل « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين » (١) وقد التفت اليه السيوطي فقال « ... وجملة النفي خبر مبتدؤه ذلك .والاشارة للتعظيم »(٢) .

ومنها « التأكيد » عند التكرير ، وقد لحظه السيوطي في اسم الاشارة «ذلك» المكررة في آية البقرة :«ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » (٣) فقال :« ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ».

«يتجاوزون الحد في المعاصي وكرر للتأكيد » (٤) فالضمير في « كرر» يعود على اسم الاشارة في الآية الكريمة غير أن إيجاز عبارة التفسير كاد أن يجعل الأمر يغم ، لولا أن قارئه لايحتمل لغير تكرار اسم الاشارة غرضاً في هذه الآية . إذ لم يكن تكرار « كانوا » موضع تأمل بلاغي ،ومثل هذا كثير في تفسير الجلالين الا أنه لايخفى على القاريء الواعي ، المدرك لاسرار العربية واساليبها البلاغية واغراض تلك الأساليب .

التقديم والتأخير :

وللتقديم في كتاب الله مقاصد ، التفت اليها الجلالان فمنها :

أ. مايراه المحلي من أن التقديم والتأخير قد يكون لاحداث التناسق الموسيقي بين الآي ، كتقديم المفعول به على فعله في قوله عز وجل :«قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين اغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا اليك ما كانوا إيانا يعبدون» (٥). فضمير النصب المنفصل « ايانا »قدم على الفعل «يعبدون » في الآية الكريمة لغرض التناسق بين الفواصل في رؤوس الآي ،فيما يذهب اليه الشيخ ولذلك

---

(١) البقرة : ٢ . (٢) تفسير الجلالين ص ١ .
(٣) البقرة : ٦١ .
(٤) تفسير الجلالين ص ١٠ .
(٥) القصص : ٦٣ .

ولذلك قال بعبارته الموجزة : « وقدم المفعول للفاصلة » . (١) وسنناقش رأيه هذا في موضعه من البحث .

ب . ومنه تقديم الأهم على مادونه في الأهمية، كتقديم الابل على غيرها من عناصر الطبيعة في الآيات الكريمة : «افلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت والى الأرض كيف سطحت » (٢) لما لها من أهمية في حياة البدوي ،والأهم مقدم عرفا ،كما هو معلوم.ولذلك قال المحلي في خاتمة تفسيره لهذه الآيات ملتفتا الى هذه الحقيقة: «وصدرت – يقصد الآيات – بالابل لأنهم اشد ملابسة لها من غيرها » (٣) .

الاستفهام

وعني الجلالان باسلوب الاستفهام في القرآن والتفتا إلى كثير من معانيه الاضافية التي خرج اليها عن مقتضى الظاهر . فمن ذلك :

أ. الاستفهام التقريري : الذي يلحظه السيوطي مثلاً في قوله تعالى : « هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا » ؟ (٤) ويتبينه المحلي في هذه العبارة التي كررت إحدى وثلاثين مرة في سورة الرحمن « فبأي آلاء ربكما تكذبان »؟ يقول: « ذكرت إحدى وثلاثين مرة ،والاستفهام فيها للتقرير»، ثم يستدل على هذا المعنى بحديث جابر بن عبدالله الأنصاري عن النبي (ص) فيقول « لما روى الحاكم عن جابر ،قال : قرأ علينا رسول الله (ص) سورة الرحمن حتى ختمها ،ثم قال:مالي أراكم سكوتا ؟ للجن كانوا أحسن منكم ردا ،ما قرئت عليهم هذه الآية من مرة: «فبأي آلاء ربكما تكذبان » إلا قالوا: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد ». (٥) وبذلك استعان المحلي بالسنّة في توضيح وتوجيه بعض وجوه البلاغة القرآنية وهو منهج مثمر ومفيد إذ كانت السنة النبوية شارحة للقرآن ،مبينة له ،مفصلة لمجمله .. فما أحراها أن تكشف عن وجوه البلاغة فيه وتبينها .

---

(١) تفسير الجلالين ص ٣٢٩ .

(٢) الغاشية : ١٧—٢٠ .

(٣) تفسير الجلالين ص ٥٠٩ .

(٤) البقرة : ٢٤٦ .

(٥) تفسير الجلالين ص ٤٥٠ .

ويبدو أن الشيخ المحلي فهم من معنى التقرير هنا : التقرير بالنفي ، وهو الضرب المقابل للتقرير بالايجاب (١) أوقل : الاثبات . وقاعدته التي وضعها أبو جعفر الطوسي: «أن جوابه يجب أن يكون بالنفي فصار ذكره يغني عن ذكر جوابه »(٢). والجواب الذي ورد في الحديث عن لسان الجن كان بالنفي لقولهم: « ولابشيء من نعمك ربنا نكذب » فاقتضى أن يكون التقرير الذي خرج اليه الاستفهام تقريراً بالنفي لا بالايجاب .

ب. ومنه الاستفهام الانكاري ، الذي يلحظه السيوطي في قوله عزّ وجل منكراً على الجاهلين عقيدتهم الاسطورية في تحريم بعض الأنعام « قل ألذكرين حرم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين»(٣) . وهذا الضرب عده البلاغيون من إنكار الفعل إذ لم يكن المراد معرفة عين المحرّم بل المراد إنكار التحريم من أصله(٤) ولم يبين السيوطي ذلك إيجازاً فيما يبدو. ونرى المحلي يلمح الاستفهام الانكاري في قوله تعالى: «أفمن حق عليه العذاب أفانت تنقذ من في النار» (٥) ولا يحتمل للتعبير غير هذا الاسلوب. إلا أنه يحتمل للاداة «ما» في قوله تعالى: «فما تغن النذر » (٦) غير الدلالة على الاستفهام الانكاري ، إذ يرى أنها قد تفيد النفي (٧) . فيكون الكلام على هذا خبراً عن حال اولئك المكذبين، كما يجوز أن يكون إنكارا . ويبدو أن الاستفهام للتوبيخ – إذا جعلنا(ما)استفهامية – إذ هذا المعنى أظهر من معنى الانكار فيه ، كما يقول أحدنا لآخر فما تنفعك النصيحة ؟ وما يفيدك التوجيه ؟ ،فهو هنا يوبّخه ويقرعه،لا أن ينكر عليه . وعد بعض المتأخرين (٨) التوبيخ ضربا من الانكار وفرعا منه . وفيه نظر

---

(١) ينظر التقرير بالايجاب في تفسير التبيان للطوسي ٤٠٢/٨ ، والتقدير بالنفي في المصدر نفسه ٣٣/٣ (٢) الطوسي : التبيان في تفسير القرآن ٣٣/٣ .

(٣) الأنعام : ١٤٣ وانظر يونس : ٢ « أكان للناس عجباً ان اوحينا الى رجل منهم » .

(٤) السكاكي : مفتاح العلوم ص ١٥١ . والقزويني : الايضاح ١٤١/١ .

(٥) الزمر : ١٩ . (٦) القمر : ٥ . (٧) تفسير الجلالين ص ٤٤٧ .

(٨) كالقزويني ، انظر : التلخيص ص ١٦٦ والايضاح ١٣٨/١ .

فأن التوبيخ معنى غير الانكار، ولعل اشتماله على الانكار أولى من العكس. ولهذا كان الجلالان يفرقان بين الانكار والتوبيخ.

ج. ومنه الاستفهام التوبيخي الذي التفت اليه السيوطي في قوله تعالى: «فأما الذين أسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم» كما التفت اليه المحلي في قوله تعالى: «قتل الانسان ماأكفره» (١) فقال: «استفهام توبيخ أي: ماحمله على الكفر» (٢). وكان الفراء (ت ٢٠٧هـ) يرى أنّ هذا الاستفهام الذي في الآية يحتمل التعجب أيضاً إلا أنه يقرر أن الوجه الآخر هو المعمول عليه في التفسير، ويقدر الكلام في الآية: «ماالذي اكفره»؟ (٣)

د. وهناك الاستفهام التشويقي او التعجيبي، وهو الممهد لما بعده من قول والمشوق له. كالذي اشار اليه السيوطي في وقوفه عند قوله تعالى: «الم تر الى الذين خرجوا من ديارهم. وهم ألوف حذر الموت» (٤) فقال: «ألم استفهام تشويق إلى استماع مابعده». (٥)

هـ. ومنه الاستفهام التفخيمي الذي لمحه المحلي في قوله عز وجل: «عم يتسالؤن. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون». (٦) فقال: «عم»: عن اي شيء «يتساءلون»: يسأل بعض قريش بعضا «عن النبأ العظيم» بيان لذلك الشيء والاستفهام لتفهيمه، وهو ماجاء به النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن المشتمل على البعث وغيره». (٧) ولعل من هذا الوادي مايمكن أن نسميه «الاستفهام التعظيمي» الذي تبينه المحلي أيضا في قوله تعالى: «والسماء والطارق. وما ادراك ماالطارق. النجم الثاقب» (٨) فقال. «وفيه تعظيم لشأن الطارق، المفسر بما بعده، وهو النجم اي: الثريا» (٩).

---

(١) عبس: ١٧. (٢) تفسير الجلالين ص ٥٠١.

(٣) الفراء: معاني القرآن ٣/٢٧٨.

(٤) البقرة: ٢٤٣. (٥) تفسير الجلالين ص ٣٤ (٦) النبأ: ١ــ٣. (٧) تفسير الجلالين ص ٤٩٨ (٨) الطارق: ١ــ٣. (٩) تفسير الجلالين ص ٥٠٧.

ومنه الاستفهام المراد بهالأمر، وقد لمحه المحلي في قوله تعالى: «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر» (١) فقال: « فهل من مدكر» : متعظ به وحافظ له والاستفهام بمعنى الأمر اي : احفظوه واتعظوا به . وليس يحفظ من كتب الله عن ظهر قلب غيره » . (٢)

التغليب :

وهو من وجوه البلاغة العربية وقد نبه عليه من قدامى المفسرين جارالله محمود بن عمر الزمخشري . (٣)

وله صور في القرآن التفت اليها الجلالان فمنها :

أ. تغليب الأكثر على الأقل ، كالذي رآه السيوطي في تغليب الأبوين — الأب والجد — على العم في قوله تعالى على لسان أبناء يعقوب : « قالوا نعبد إلهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق » اذ قال : « عد اسماعيل من الآباء تغليب » (٤) وأضاف إلى ذلك سببا آخر هو التجوز في التعبير بانزال العم منزلة الأب . وذلك من سنن العرب وطرائقهم في الكلام (٥) فقال : « ولأن العم بمنزلة الاب» . (٦)

وعد المحلي ورود « ما » الموصولة بدلا من « من » في قوله عز وجل:

---

(١) القمر : ١٧.

(٢) تفسير الجلالين ص ٤٤٨ ؛ (٣) انظر مبحثه في : البلاغة تطور وتاريخ لشوقي ضيف ص ٢٥٢ ، عند كلامه على ما اضافه الزمخشري في المعاني .

(٤) البقرة : ١٣٣ (٥) تفسير الجلالين ص ١٩ .

(٦) الثعالبي : فقه اللغة ، فصل « في اقامة العم مقام الأب والخالة مكان الأم » ٥٥٨ .
وقد جعل الآية الكريمة موضوع البحث من اقامة العم مقام الأب وجعل قوله تعالى في سورة يوسف : « ورفع أبويه على العرش » آية : ١٠٠ ، من اقامة الخالة مقام الأم ، لما روى من أن أم يوسف كانت قد توفيت ، وهذه خالته .

« يسبح لله مافي السموات وما في الارض » (١) من هذا الضرب من التغليب، فقال: « وأتى بما دون من تغليبا للأكثر » (٢).

ب. ومنه تغليب العاقل على غيره، كالذي لمحه المحلي في قوله تعالى: «فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير »، (٣) فقال: « يذرؤكم » بالمعجمة: يخلقكم. « فيه »: في الجعل المذكور، أي: يكثركم بسببه بالتوالد. والضمير للأناسي والأنعام بالتغليب ». (٤) يريد ان الأناسي غلبت على الأنعام في الآية الكريمة، ولذلك عبر عن الجنسين بضمير العقلاء في « يذرؤكم ».

ج. ومنه تغليب الذكور على الاناث، وقد التفت اليه المحلي أيضاً إذ فسر قوله تعالى: « إنّ المصدقين والمصدقات واقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم اجر كريم »، (٥) فقال: « وأقرضوا الله قرضاً حسناً»، راجع الى الذكور والاناث بالتغليب ». (٦) يريد: أن الضمير المتصل في « أقرضوا » يعود على الذكور والاناث المتقدم الحديث عنهم في الآية الكريمة، وهم المؤدون للصدقات. وقد جاء بصيغة ضمير الذكور تغليباً لهم على الاناث.

التكرار :

وأسلوب التكرار من الدلائل البلاغية القرآنية، وهو جاء على إلف العرب في التعبير، إذ كان من عادتهم الاطناب، كما كان من عادتهم الايجاز، بحسب مقتضى الحال. وهو وثيق الصلة بهدف القرآن في الحث على الايمان والعمل الصالح والنأي عما ينافيهما.

قال الكرماني (٧) (ت أول القرن السادس للهجرة)، وهو يتكلم على

(١) التغابن: ١ (٢) تفسير الجلالين ص ٤٧٢. (٣) الشورى: ١١
(٤) تفسير الجلالين ص ٤٠٦. (٥) الحديد: ١٨. (٦) تفسير الجلالين ص ٤٥٧
(٧) أسرار التكرار في القرآن ص ٢٠٠.

التكرار في سورة المرسلات : « لأن بسط الكلام في الترغيب والترهيب أدعى الى ادراك البغية من الايجاز » . وكأنه يشير بهذا القول الى تأثيره النفسي، لأن الشيء اذا تكرر على السمع كان أكثر تأثيراً في النفس وعلوقاً بها، اذ هو يوحي بالتقدير والاقناع والجزم .

وقد انتهت الدراسات النفسية الى ان مثل هذا الاسلوب هو أقوى أساليب الاستدلال النفسي، وادعاها الى اليقين ، واكثرها ايحاء بالحسم والجد (١) « فاذا تكرر الشيء رسخ في الاذهان رسوخاً ينتهي بقبوله حقيقة ناصعة»(٢) ولذلك عني الجلالان بهذا الاسلوب القرآني كما عني به من سبقهما من المفسرين ... والبلاغيين . فالمحلي يلحظ معنى التأكيد الذي يحدثه التكرار في قوله تعالى « كلا سيعلمون . ثم كلا سيعلمون » (٣) ويذهب الى انه قد جيء بـ « ثم » لتهويل الوعيد ، او على حد تعبيره « ايذاناً بأن الوعيد الثاني أشد من الاول » . (٤) وكان الكرماني يحكي مع القول بأن التكرار مسوق في الآية لغرض التأكيد أقوالا أخرى أحدها أن العبارة الأولى للكفار والثانية للمؤمنين ، وثانيها أن الأولى عند النزع والثانية في القيامة ، وثالثها: أن الأولى ردع عن الاختلاف والثانية عن الكفر. (٥) واحتمل بعض المعاصرين (٦) أن تكون الأولى: لما ينال الكفار من هزيمة على أيدي المؤمنين والثانية لما ينالهم من عذاب الآخرة .

وهذه الاقوال لا تخلو من ضعف لأنها تمزق السياق وتجعله موزعاً بين

(١) عائشة عبد الرحمن: التفسير البياني للقرآن الكريم ٧٤/١ .

(٢) لوبون: غوستاف: روح الاجتماع، ص ١٣٩ . وانظر: بدوي- الدكتور احمد :من بلاغة القرآن، ص ١٤٣ .

(٣) النبأ: ص ٤-٥ .

(٤) تفسير الجلالين، ص ٤٩٨ .

(٥) الكرماني: أسرار التكرار في القرآن، ص ٢٠١ .

(٦) تنظر تعليقة عبد القادر أحمد عطا محقق كتاب الكرماني « أسرار التكرار في القرآن » في هامش ص ٢٠١ .

شيئين ، مع أنه يقتضي أن الكلام في كلتا العبارتين مسوق لغرض واحد ، هو الوعيد بعذاب الآخرة بعد أن انكرها المشركون. ويدل على ذلك ما ورد قبلهما ، وهو قوله تعالى « عم يتساءلون» . عن النبأ العظيم . الذي هم فيه مختلفون» (١) كما يدل عليه ما ورد بعدهما في السياق وهو قوله « ان يوم الفصل كان ميقاتاً. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً » ...(٢) الى آخر الآيات التي تصور الهول في يوم القيامة (٣) كما تصور النعيم فيه بعد ذلك (٤) على وجه المقابلة. فضلا على أن ما ذكروه لا دليل عليه وخاصة من داخل القرآن ، مع أن الدليل على خلافه واضح كما أسلفناه. وبالمثل نجد السيوطي يلمح معنى التأكيد في تكرير قوله تعالى : « ويحذركم الله نفسه » مرتين في سورة آل عمران ، (٥) في سياق واحد . فيقول بعبارة موجزة جرياً على منهجه في هذا التفسير : « كرر للتأكيد » . (٦) وقال الكرماني في بيانه لسر هذا التكرار : «كرر مرتين . لأنه وعيد عطف على (٧) وعيد آخر في الآية الأولى » . (٨)

علم البيان :

بين الجلالان في تفسيرهما كثيراً من صور البيان القرآني الا أنه ذلك اتسم بالايجار تمشياً مع منهجهما في هذا التفسير . وكان من مباحثه .

التشبيه :

للتشبيه في كتاب الله صور وأساليب متعددة تحقق أهدافا دينية متنوعة ، يلتفت اليها الجلالان وهما يفسران الآية ، فمنه :

(١) النبأ : ١-٣ .
(٢) النبأ : ١٧-١٨ .
(٣) النبأ : ١٩-٣٠ .
(٤) النبأ : ٣١-٣٦ .
(٥) في الآيتين : ٢٨ و ٣٠ .
(٦) تفسير الجلالين ، ص ٤٥ .
(٧) في الاصل : عليه ، والصحيح ما اثبتناه لدلالة الكلام على ذلك .
(٨) الكرماني : أسرار التكرار في القرآن ، ص ٤٢ .

أ. تشبيه شيء بشيء آخر تشبيها اعتيادياً ،كالذي بينه السيوطي في وقوفه عند آية البقرة : « مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لايبصرون . صم بكم عمي فهم لايرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين » (١) فقال « ... وفيه ذكر الكفر المشبه بالظلمات، والوعيد عليه المشبه بالرعد والحجج البينة المشبهة بالبرق . يسدون آذانهم لئلا يسمعوه فيميلوا الى الايمان وترك دينهم . وهو عندهم موت » .(٢) وهذا الاجتزاء في بيان التشبيه المركب في الآية الكريمة له في كشاف الزمخشري بيان وتفصيل وتنظير بكلام العرب . (٣)

ب. ومنه التشبيه المعكوس بقصد المبالغة في الكلام او كما يسميه البلاغيون التشبيه المقلوب . (٤) وقد التفت اليه السيوطي ايضاً في قوله تعالى : «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ..» ، (٥) فقال : « قالوا انما البيع مثل الربا» في الجواز ، وهذا عكس التشبيه مبالغة . (٦) يريد : أن الاصل في التشبيه هنا أن يقال: إنما الربا مثل البيع،ولكنه عكس لغرض بلاغي هو المبالغة في تبيين حرص المرابين على الربا ، وتفانيهم في المدافعة عنه ، حتى جعلوا البيع كأنه الربا عينه . فوضع المشبه به مكان المشبه لهذا القصد .

ج. ومنه تشبيه الغريب بالأغرب ، وقد التفت اليه السيوطي في وقوفه عند قوله عز وجل : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له

---

(١) البقرة: ١٧-١٨ .

(٢) تفسير الجلالين، ص ٥ .

(٣) الزمخشري: الكشاف ١/١٦٠-١٦٤ .

(٤) السكاكي : مفتاح العلوم، ص ١٦٣ ، والقزويني: التلخيص، ص ٢٦٦

(٥) البقرة: ٢٧٥ .

(٦) تفسير الجلالين، ص ٤٠ .

كن فيكون» (١) فقال: «إن مثل عيسى» الغريب «عند الله كمثل آدم»: كشأنه في خلقه من غير أب. وهو تشبيه الغريب بالاغرب ليكون أقطع للخصم وأوقع في النفس». (٢)
ونلاحظ هنا أن السيوطي بين القصد من هذا الضرب من التشبيه، فربطه بأصول الجدل ونوه بأثره النفسي في قطع المجادل وظهور حجة المحتج. اذ لاشك في أن خلق عيسى من غير أب – على غرابته – ليس بأغرب من خلق آدم من تراب، مع أن الذين ينكرون خلق عيسى بهذه الصورة، لاينكرون خلق آدم من تراب، فكانت قوة الغرابة في المشبه به، قوة للدليل في معرض الاحتجاج والاقناع.

ويشير الجلالان في مواضع من تفسيرهما الى الأهداف التي يتوخاها القرآن من تشبيهاته، وهي أهداف تتصل بالعقيدة الدينية، وتتخذ وجهات متعددة كل وجهة تحقق هدفاً معيناً. فالسيوطي يلحظ الهدف من التشبيه في الآية التي تصور من ابتعد عن آيات الله بعد إذ رآها، واتبع هواه ولم يتبع الهدى، ويضع أيدينا على ذلك التشبيه الدقيق والتصوير المعبر عن حالة فكرية معينة فيقول في تفسيره لقوله تعالى: «واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث وان تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون» (٣): «و القصد التشبيه في الوضع – أي الضعة – والخسة، بقرينة الفاء المشعرة بترتيب ما بعدها» (٤).

---

(١) آل عمران: ٥٩.

(٢) تفسير الجلالين، ص ٤٨.

(٣) الاعراف: ١٧٥-١٧٦.

(٤) تفسير الجلالين، ص ١٤٣.

ونرى المحلي يضع ايدينا على الهدف العام من تشبيهات القرآن الجارية مجرى الأمثال في ضوء آية النور : (١) « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية .... » فيقول في تفسيره لخاتمتها : « ويضرب الله الأمثال للناس » : « تقريباً لأفهامهم ليعتبروا فيؤمنوا » . (٢) وفكرة التقريب هذه قائمة على أن القرآن يقرب المعنويات عن طريق المحسّات ، فالآية ضربت مثلا لنور الله في قلب المؤمن، فصورته بصورة المُحَس وأخرجته الى حيز المنظور مع أنه شيء معنوي كما هو واضح .

الحقيقة والمجاز :

عرض الجلالان للحقيقة والمجاز في القرآن ونبها عليهما في مواضع من تفسيرهما . ونراهما ينصان على أن في الكلام مجازاً حين لا يحتمل في رأيهما الحقيقة . فان احتمالها بينا ذلك . وهما يسلكان الاستعارة في باب المجاز ، دون أن يشيرا الى أنها استعارة ويبينا نوع تلك الاستعارة أو يعينا نوع المجاز الذي تمخضت عنه . وأيضاً فانهما لا يبينان نوع المجاز أعقلي هو أم مرسل ، بل يشيران الى أنه مجاز فحسب وقد يكتفيان بالوصف دون بيان الاصطلاح فلا ينصان على أنه مجاز . وهذا يرجع الى أنهما ينشدان الايجاز في بيان وجوه البلاغة تمشياً مع منهجهما الذي التزما به .

أ . فالسيوطي يلمح مثلا المجاز العقلي أو كما سماه عبدالقاهر « الحكمي » (٣) الذي علاقته الاسناد الى المكان في وقوفه عند قوله تعالى : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار » (٤) ولكنه لايبين

---

(١) سورة النور : ٢٥ .
(٢) تفسير الجلالين ، ص ٢٩٦ .
(٣) دلائل الاعجاز ، ص ٢٨٦ وما بعدها ، وقد مثل بقوله تعالى : « فما ربحت تجارتهم »
(٤) البقرة : ٢٥

نوعه وعلاقته بل يكتفي بالقول : « إن إسناد الجري الى النهر مجاز ، لأن الجري في الحقيقة للماء الذي يجري فيه ، لان الماء ينهره أي : يحفره » . (١) وهذا الذي ذكره السيوطي هو المشهور بين البلاغيين والمفسرين . فقد كان الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) ، يذهب الى أن « اسناد الجري الى الأنهار من الاسناد المجازي » وينظر له بقول العرب : « بنو فلان تطؤهم الطريق » . (٢) ومراده : أن الماشين هم الذين يطأونها في الحقيقة إلا أن ذلك جرى على سبيل الاسناد الى المكان إسنادا مجازياً . وكان الطوسي يذهب الى عكس ذلك ، فيرى أن التعبير في الآية حقيقة عرفية ويقول : « انه بعرف الاستعمال سقط عنه اسم مجاز » .(٣) والحقيقة العرفية تعني : « أن يشتهر المجاز بحيث يكون استعمال الحقيقة منكراً » . (٤) وبالمثل يلمح المحلي المجاز في قوله عز وجل : «فكيف تتقون يوماً يجعل الولدان شيبا » (٥) ولكنه لايصرح بأنه عقلي وأن علاقته الاسناد الى الزمان ــ من حيث إنه أسند الاشابة الى اليوم وهي في الحقيقة ليست له ــ بل هو يكتفي بأن يقول : « ويقال في اليوم العديد يوم يشيب نواصي الاطفال وهو مجاز » . (٦) الا أنه مع ذلك يحتمل أن يراد بالتعبير الحقيقة فيقول : « ويجوز أن يراد به في الآية الحقيقة » . (٧) وهو في هذا الاحتمال يلحظ شدة الهول في يوم القيامة على ما يقرره القرآن في آيات وسور كثيرة منه وما يقرره في سياق هذه الآية أيضاً إذ يقول بعد ذلك : السماء منفطر به » . ويجعل المحلي ذلك مسوغاً لارادة الحقيقة في الآية .

ب. ويلمح المحلي المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية مثلا في بعض المواضع ، أو بعبارة أخرى يلمح المجاز الذي يذكر فيه الجزء ويراد به الكل . ففي وقوفه

(١) تفسير الجلالين، ص ٦

(٢) الزمخشري : الكشاف ٢٠٠/١ .

(٣) الطوسي : التبيان ٢٣٢/٣-٢٣٣ .

(٤) العلوي : الطراز ٥٢/١ .

(٥) المزمل : ١٧ .

(٦) تفسير الجلالين، ص ٤٩٠ .

(٧) تفسير الجلالين، ص ٤٩٠ .

عند قوله عز وجل : (١) « وجوه يومئذ خاشعة » ... «وجوه يومئذ ناعمة » . يرى أنه عبر بالوجوه عن الذوات في الموضعين . (٢) فيشعرنا أنه التفت الى هذا الضرب من المجاز المرسل وان لم يصرح بذلك . واكثر منه إيجازا عبارة السيوطي في بيان المجاز المرسل الذي علاقته تسمية الشيء باسم ما سيؤول اليه ، في قوله تعالى: « إني أراني أعصر خمرا ». (٣) إذ نراه يقول: « أي عنباً » (٤). فاكتفى بالتفسير عن بيان المجاز المرسل وعلاقته في الآية . ومثل هذا كثير في تفسيرهما .

ج . ويلحظ السيوطي التعبير الاستعاري في قوله تعالى : « حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على مافرطنا فيها »(٥) فيسميه مجازا ، إذ يقول : «قالوا ياحسرتنا» : هي شدة الألم .ونداؤها مجاز . أي: هذا اوانك فاحضري»(٦). فواضح أنه فهم من مناداة الحسرة في الآية ضربا من التشخيص الاستعاري بتشبيه الحسرة بالعاقل المدرك لمفهوم النداء .ولكنه لم يصرح بأنه استعارة.

إن هذا الاسلوب في بيان وجوه البلاغة القرآنية قد يهدينا إلى أن نقرر — مع القول بمراعاة الايجاز — بأن الجلالين قد نهجا في ذلك المنهج الفني الذي سار عليه عبد القاهر ومن عاصره أو قارب عصره من أفذاذ المفسرين المهتمين ببلاغة القرآن كالطوسي والزمخشري، دون الخوض في تلك الاصطلاحات والتفريعات التي انتهى اليها المتأخرون أصحاب مدرسة الكلام والمنطق والفلسفة. من مثل السكاكي والقزويني ومن تابعهما . وهي وجهة سليمة في التعامل مع البلاغة القرآنية . وكان هذين المفسرين الجليلين لم يشاءا أن يشغلا قارىء تفسيرهما بهذه الاصطلاحات والتفريعات الكثيرة المتشعبة التي نجدها في كتب هؤلاء

(١) الغاشية : ٢ ، ٨ .
(٢) تفسير الجلالين، ص ٥٠٩ .
(٣) يوسف : ٣٦ .
(٤) تفسير الجلالين، ص ١٩٦ .
(٥) الانعام : ٣١
(٦) تفسير الجلالين، ص ١٠٨ .

المتأخرين من البلاغيين، بل رأيا أن بيان وجوه البلاغة باقتصاد فيه منفعة للتفسير وقارئه لاتعد لها منفعة . وان بيان تلك الوجوه على وجه الاجمال ، أو من خلال بيان معاني الآي ، يحقق هدفاً من أهداف تحريرهما لهذا التفسير الوجيز القيم. ويتضح هذا المنهج السليم أيضاً في بيانهما لأنواع البديع ، إذ لانجدهما يتصيدان كل ماتصيده المتأخرون من فنون هذا العلم بل نجدهما يقتصدان في إيرادها أيما اقتصاد .وكأنهما وجدا أن الميزة الكبرى لبلاغة القرآن تتجلى أول ماتتجلى فيما يتعلق بعلمي المعاني والبيان .وهذا المنهج واضح أيضاً في تفسيري الطوسي والزمخشري على الرغم من اختلاط مصطلحات علوم البلاغة في عصرهما وعدم تميزها التميز الذي الفيناه فيما بعد .

علم البديع :

من أظهر موضوعات علم البديع ، التي عني بها الجلالان :

الالتفات :

للالتفات اساليب ثلاثة (١) يلحظها الجلالان عند تفسير الآي :

أ. فمنها الالتفات من الغيبة الى الخطاب ، كما في قوله تعالى : « واذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون » ، (٢) فقد لمحه السيوطي في قراءة من قرأ « يعبدون » بالياء (٣) ، بدلا من قراءته بالتاء ، فقال في خاتمة تفسيره للآية الكريمة : « ثم توليتم : أعرضتم عن الوفاء به،فيه التفات عن الغيبة،والمراد آباؤهم».(٤)

---

(١) ابن الزملكاني: التبيان في علم البيان، ص ١٧٣ والقزويني: التلخيص، ص ٩٥ .

(٢) البقرة: ٨٣ .

(٣) هي قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي من السبعة: انظر ابن مجاهد: كتاب السبعة، ص ١٦٢.

(٤) تفسير الجلالين، ص ١٢ . وانظر لمح المحلي لهذا النوع من الالتفات في الآية ٢٧ من سورة فاطر .

ب. ومنها الالتفات من الخطاب الى الغيبة ، كما في قوله تعالى : « لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين » . (١) وفيه يقول المحلي : « ... وقالوا هذا إفك مبين : كذب بين . فيه التفات عن الخطاب : أي ظننتم أيها العصبة » . (٢) ومراده : أن الآية ابتدأت بخطاب الخائضين في حديث الافك ، وذلك قوله تعالى : « لولا إذ سمعتموه » ، وانتهت بالاخبار عنهم بقوله تعالى : « ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا » . ولهذا أوله بقوله : « ظننتم وقلتم » .

الاستطراد :

يراد بالاستطراد في علم البلاغة : « الانتقال من معنى الى آخر متصل به ، لم يقصد بذكر الاول التوصل الى ذكر الثاني » . (٣) وقد عده بدر الدين بن مالك (ت ٦٨٦ هـ) ، من فنون المحسنات المتعلقة بالفصاحة المختلفة المختصة بافهام المعنى وتبيينه . (٤) وتابعه في هذا القزويني . (٥) فكان الاستطراد عنده « من الفنون التي زادها على السكاكي في المعنوية » . (٦) وأشار السيوطي الى الاستطراد ، لامحاً فيه الناحية الجمالية ، وذلك حين فسر قوله عز وجل : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته فسيحشرهم اليه جميعاً » ، (٧) فقال : « أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون: عند الله ، لايستنكفون أن يكونوا عبيداًلله.

---

(١) النور : ١٢ .

(٢) تفسير الجلالين، ص ٢٩٣

(٣) القزويني: الايضاح ٣٤٩/٢

(٤) احمد مطلوب: مصطلحات بلاغية، ص ٨٩ .

(٥) الايضاح ٣٤٩/٢-٣٥٠

(٦) أحمد مطلوب: مصطلحات بلاغية، ص ٩١ .

(٧) النساء: ١٧٢ .

وهذا من أحسن الاستطراد ، ذكر للرد على زعم أنها آلهة أو بنات الله ». (١) والغاية من كلامه : أن الآية مسوقة لبيان عبودية المسيح لله ، ورد على من زعم من اهل الكتاب ان الآلهة ثلاثة : « الله وعيسى و أمه ، » (٢) وهو الزعم الذي بينته الآية التي قبلها . فجاء قوله تعالى بعد ذلك : « ولا الملائكة المقربون » في سياق نفي ألوهية المسيح . استطراداً حسناً ، اذ كان رداً على الجاهليين الذين يزعمون — بتصور اسطوري واضح — أن الملائكة بنات الله . وهو زعم أنكره القرآن في غير موضع منه (٣) .

الفاصلة :

الفاصلة في القرآن كالقافية في الشعر والقرينة في السجع ، (٤) إلا أن بينها وبينهما بوناً ، من حيث إن الفاصلة لاتخضع للضرورة . في حين قد تخضع القافية لها . (٥) لأن كلام الخالق القادر العليم لاتتناوله الضرورات ، بخلاف كلام المخلوق ، على ماقرره الشيخ محمد عبده في دروسه . (٦) كما أن السجع يعتمد الصنعة ، وقلما يخلو من التكلف . ولهذه العلة أنكر الأشاعرة — وعلى رأسهم شيخهم أبو الحسن — وبعض المعتزلة والامامية . أن يكون في القرآن سجع . وميزوا الفواصل من الأسجاع . وعدوا الفواصل تابعة للمعاني ، والمعاني تابعة للأسجاع ، على نحو مانرى فيما كتبه الرماني (٧) والباقلاني (٨)

(١) تفسير الجلالين ، ص ٨٦ .
(٢) تفسير الجلالين : المكان نفسه .
(٣) الانبياء : ٢٦ و النجم : ٢٢ .
(٤) الزركشي : البرهان في علوم القرآن ٥٣/١ ، و السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ٩٦/٢ .
(٥) السيوطي : الاتقان ٩٧/٢ .
(٦) تفسير المنار ١٢/٢ .
(٧) النكت في اعجاز القرآن ، ص ٩٧ .
(٨) اعجاز القرآن ص ٨٦ .

والطوسي (١) . وان كان الطوسي يخصص ذلك بسجع الكهان ، على حين يعممه الرماني ، فينقد عليه ابن سنان الخفاجي (٢) هذا التعميم . ثم ينتهي الأمر بالمتأخرين ، الى اعتبار الفواصل من الأسجاع ، على ماهو ظاهر لدى السكاكي (٣) والقزويني . (٤)

اما الجلالان ، فقد اتجها في التسمية الوجهة السليمة ، فكانا يسميان رؤوس الآي فواصل ، ولا يسميانها اسجاعاً . إلا انهما قد يخطئان التعليل في استعمالها واحوالها عند التطبيق ، على ماسنرى . . ونراهما يذهبان الى مايذهب اليه المفسرون والبلاغيون ، من أن القرآن قد يراعي عند اختيار الفاصلة . التناسق الموسيقي بينها وبين اخواتها في سياق الآيات ، او في السورة كلها . فيعدل عن فاصلة الى أخرى ليحقق هذا الانسجام الذي يقصد الى إحداثه في رؤوس الآي . فالمحلي يلحظ مثلا في وقوفه عند قوله تعالى في سورة القمر : « تنزع الناس كأنهم اعجاز نخل منقعر » . (٥) أن الفاصلة هنا منتهية بالراء ، وفي سورة الحاقة : (٦) « كأنهم اعجاز نخل خاوية » منتهية بالتاء . ويعلل هذا التباين في اسلوب الآيتين ، بمراعاة الفواصل في الموضعين . (٧) اذ كانت سورة القمر تنتهي فواصلها بالراء . وسورة الحاقة بالتاء .

ولسنا ممن ينكر عناية القرآن بالانسجام الموسيقي بين الفواصل ، وعدوله – في مواضع – عن لفظة الى أخرى ، أو صيغة ، تحقيقاً لهذا الانسجام ، إذ أن ذلك ظاهر في مواضع منه ، إلا أننا ننكر أن يكون ذلك علة لما يمكن

(١) التبيان ١٠٩/١٠ .
(٢) سر الفصاحة ، ص ١٦٤-١٦٥ .
(٣) المفتاح ، ص ٢٠٣ وفيه يذكر أن الاسجاع في النثر كالقوافي في الشعر .
(٤) التلخيص ، ص ٣٩٩ ، والايضاح ٣٩٣/٢ .
(٥) القمر : ٢٠ .
(٦) آية : (٧)
(٧) تفسير الجلالين ، ص ٤٤٨ .

ان يعلل تعليلا معنوياً ، كما في تقديم لفظة على أُخرى في بعض الآي ، إذ هو غالباً ما يخضع لاعتبارات علم المعاني ، كما سنوضحه . والكلام هنا يسلم الى مآخذ لنا على تفسير الجلالين ، نختم بها هذه الدراسة .

مآخذ على تفسير الجلالين :

لم يخل تفسير الجلالين ـ شأن أي تفسير للقرآن الكريم ـ من الآراء المرجوحة والاقوال البعيدة . إذ كان الامامان الجلالان ، السيوطي والمحلي ، يختاران وجها أو قولا من وجوه واقوال كثيرة واردة في بيان معاني الآي ، او الفاظها وتراكيبها مما له وشيجة باللغة او النحو او غيرهما . فمع أنهما ـ غالباً ـ يختاران الأشهر (١) أو ماعليه الجمهور من وجوه التأويل ، (٢) فيكون اختيارهما لذلك قوياً ، إلا انهما يختاران مالايرتضى من تلك الوجوه والاقوال . ونود الاشارة هنا الى أمثلة من هذه المآخذ ، دون توخي استقصائها وها نحن نورد طرفاً منها .

١. فقد حمل اعتقاد الجلالين برعاية الفاصلة في القرآن من أجل التناسق الموسيقي بين الآي على القول بأن التقديم والتأخير بين المفعول به وفعله في قوله تعالى : « قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا اليك ماكانوا إيانا يعبدون » ، (٣) كان لغرض تناسق الفواصل في رؤوس الآي . أو بعبارة أُخرى : إن تقديم الضمير المنفصل « إيانا » على الفعل « يعبدون » ، كان رعاية للفاصلة على حد تعبير الشيخ . (٤) وهو مالانقره

(١) انظر تأويل المحلي للسائق و الشهيد بالملك في الآية ٢١ من سورة ق، ص ٤٣٨ من الجلالين؛ وقارنه بنص الصاوي في حاشيته على الجلالين ١١٩/٤ ، على أن ذلك أشهر الاقوال .

(٢) انظر تأويل المحلي للقرين بالملك الموكل، في الآية ٢٣ من سورة ق، ص ٤٣٨، وقارنه بنص النسفي في تفسيره ١٧٨/٤ ، على أن ذلك قول الجمهور .

(٣) القصص : ٦٣ .

(٤) تفسير الجلالين، ص ٣٢٩ .
وانظر ما ذهب اليه السيوطي في تفسير الآية ١٤٣ من البقرة : « إن الله بالناس لرؤف الرحيم »، من أن تقديم الرأفة على الرحمة كان من أجل « الفاصلة »، مع اعترافه بأنه الأولى أبلغ من الثانية؛ ص ٢٠ . وواضح أن الأبلغ قدم في الآية لا رعاية للفاصلة، بل لابلغيته، كما قدم في « الرحمن الرحيم » في جميع القرآن .

أو نرتضيه ، اذ لم يكن التقديم والتأخير لهذا الزخرف الشكلي ، بل كان هدفه الاساس تحقيق المعنى الذي قصد اليه القرآن . وهو بيان تبرؤ الشياطين أو رؤساء الضلالة ومحترفي الاغواء ممن ضللوا ، وجحودهم ان يكون أولئك المضلَّلون اتخذوهم آلهة من دون الله ، لأنهم إنما ألهوا أهواءهم وعبدوا شهواتهم وما لايصح عبادته من دون الله . فلا حجة لهم عليهم ، ولا مناص لهم من استحقاق عذاب الله. فتقديم المفعول اذاً مسوق في الآية لبيان نكران أولئك الرؤساء أن يكونوا هم الآلهة التي عبدها المضللون التابعون . وليس مسوقاً لمجرد إحداث التناسق الموسيقي بين الآي بتشاكل الفواصل ، وان كان هذا قد تحقق أيضاً مع ظاهرة التقديم . فأضفى على الآية،فوق قوة المعنى جرساً موسيقياً موائماً لما تقدمها وتلاها من الاي اذ كانت فواصلها تنتهي كهذه الفاصلة ـ بالنون . ولعل من هذا الوادي ماذهب اليه المحلي أيضاً في تفسير قوله عز وجل : « ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها »، (١) اذ رأى ان تأخير التقوى كان « رعاية لرؤوس الآي » ،(٢) مع ان التأخير يمكن أن يعلل بمنأى عن هذا الملحظ الشكلي . إذ لو استقرينا الآيات التي ذكرت فيها النفس ، وجدنا بعضها يشير الى أن النفس بطبيعتها أميل الى عمل السوء ، منها الى عمل الخير ، وذلك ماورد على لسان امرأة عزيز مصر اذ تقول : « وما أبرىء نفسي إنّ النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربي» . (٣) فهذا هو الاصل في النفس الانسانية ، أنها تأمر صاحبها بالسوء والفحشاء إلا مارحم الله منهم . وقال الآلوسي : « وقدم الفجور على التقوى لأن إلهامه بهذا المعنى من مبادىء تجنبه وهو تخلية . والتخلية مقدمة على التحلية » .. ثم ذكر بصيغة التضعيف « قيل » ، القول برعاية الفاصلة . (٤)

(١) الشمس : ٧-٨ .

(٢) تفسير الجلالين، ص ٣٢٩ .

(٣) يوسف : ٥٣ .

(٤) الآلوسي: روح المعاني ٣٨١/٩ .

٢. ومن المآخذ على تفسير الجلالين ذلك القصص الغريب الذي لايقره العقل ولا العلم . كالذي أورده المحلي في وقوفه عند قوله تعالى : « لقد كان لسبأ في مسكنهم جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور » ، (١) اذ قال : « بلدة طيبة : ليس فيها سباخ ولا بعوضة ولا ذبابة ولا برغوث ولا حية ، ويمر الغريب فيها ، وفي ثيابه قمل فيموت لطيب هوائها » ! (٢) .

فهذا القول أوالتفسير لايخلو من غرابة وبعد ، لأنا إذا افترضنا وجود بلدة بهذه الصفة — وهي فيما يبدو عزيزة الوجود — فليس من المعقول ولا من الثابت عن طريق العلم أن يميت هواؤها العذب مافي ثياب الناس من قمل ، مهما كانت عذوبته ونقاوته . على أن هذه المقالة نقلت عن راو فيه ضعف ، هو عبدالرحمن بن سلمان الحجري . قال عنه البخاري : « فيه نظر » . (٣) وقال عنه النسائي : « ليس بالقوي » . (٤) وقد ساق الطبري القصة بسنده عن ابن وهب عن عبدالرحمن بتفصيل ، وفيها زيادة لم يوردها المحلي ، تحمل مبالغة اكبر . وفيها يقول نقلا عن عبدالرحمن : « وان كان الانسان ليدخل الجنتين فيمسك القفة على رأسه فيخرج حين يخرج . وقد امتلأت القفة من أنواع الفاكهة ، ولم يتناول منها شيئاً بيده » ! (٥) وهذا — كما هو

(١) سبأ : ١٥ .

(٢) تفسير الجلالين ، ص ٣٦٠ .

وانظر ما أورده في تفسير الآيتين ٤ ، ٥ من سورة الفيل ، إذ قال في أصحاب الفيل : « أهلكهم الله تعالى كل واحد بحجره المكتوب عليه اسمه » ، ص ٥١٩ . وإهلاكهم بالحجارة ثابت بنص القرآن ، إلا أن الغرابة فيما ذكره من أن كل واحد منهم كان اسمه مكتوباً على حجره الذي أهلك به ، إذ لم يتضح لنا ثبوته بدليل . وقد خلا تفسير الطبري — على عنايته الفائق بالرواية — من هذا الخبر ، انظر : جامع البيان عن تأويل آية القرآن ٣٠/١٩١-١٩٧ .

(٣) كتاب الضعفاء الصغير ، ص ٧١ ..

(٤) كتاب الضعفاء والمتروكين ، ص ٦٧ .

(٥) الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القران ٢٢/٥٣

واضح – أشبه بخيال القصاص منه بأقوال المفسرين ، وقد أورده الطبري في تفسيره جرياً على منهجه الذي التزم به في التفسير كله ، وهو ايراد الروايات المختلفة ، وترك الحكم عليها للقارىء بعد ذكر أسانيدها وبيان مضامينها المنقولة عن الرواة . فكان من المناسب للمحلي – ومنهجه غير منهج الطبري وعصره غير عصره – ان يبتعد عن هذه الرواية المخالفة للمعقول ، الضعيفة السند . والمحلي عالم فقيه لايعسر عليه ان يتبين ضعفها بعد الرجوع الى كتب الجرح والتعديل .

٣. وفي تفسير الجلالين مالايلائم الحقائق العلمية المقطوع بها اليوم عن الطبيعة وعناصرها .فقد انكر المحلي كروية الارض التي لامراء في ثبوتها في العصر الحديث . والقول بها في علم الفلك القديم . واستند في ذلك الانكار الى ظاهر قوله تعالى في سورة الغاشية : (١) « أفلم ينظروا الى الابل كيف خلقت . والى السماء كيف رفعت . والى الجبال كيف نصبت . والى الأرض كيف سطحت » ، فظن ان ذكر السطح ينافي القول بالتكور . قال : وقوله : «سطحت » ظاهر في ان الأرض سطح ، وعليه علماء الشرع ، لاكرة كما قال أهل الهيئة ،وان لم ينقض ركناً من أركان الشرع » (٢). وكأنه احتاط بقوله « وان لم ينقض ركناً ... » عن أن يسد الطريق أمام علماء الفلك المسلمين إذا ما توصلوا بالدليل القاطع إلى أن الأرض كرة ..

ولرأي المحلي هذا اثارة في أقوال بعض قدامى المفسرين ،فقد كان أبو علي الجُبّائي المعتزلي (ت ٣٠٣هـ) ،ينكر كروية الأرض أيضاً ،ويقول : إن الماء لايستقر الا فيما له جنبان يتساويان ،فلو كانت ناحية من البحر – كما يقتضيه التكور في تصوره – معتلية على الاخرى ،لصار الماء من الناحية المرتفعة إلى المنخفضة . (٣) الأمر الذي جعل أبا جعفر الطوسي يرد عليه فيقول :« هذا

(١) ١٧-٢٠ .

(٢) تفسير الجلالين، ص ٥٠٩ .

(٣) الطوسي: التبيان ١/١٠٢-١٠٣ .

لايدل على ماقاله ،لأن قول من قال : الأرض كروية ،معناه أن لجميعها شكل الكرة »(١) وهو رأى على جانب كبير من الحداثة كما ترى .

٤. ولايخلو تفسير الجلالين من قول لم يثبت علمياً ،ولا يمكن القطع به ، على نحو ما نرى في قول المحلي عن القلم في تفسير قوله تعالى : « اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم »(٢) وهو أن « أول من خط به إدريس عليه السلام » (٣) . ومعنى هذا أن بدء الكتابة المعروفة كان في عصر النبي إدريس ، وكلامه يدل على القطع ، وهو مالايمكن الأخذ به ،إذ أن تاريخ الكتابة بالقلم ،يكاد يكون من المسائل الغيبية ،فكيف يقطع ببدئه؟

٥. قد يخصص الجلالان ـ بناء على أسباب النزول ـ اللفظ العام الذي يدل عليه ظاهر القرآن ،مع أن التفسير يقتضي حمله على عمومه ،بناء على قاعدة جمهور المفسرين والاصوليين .من أن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب(٤) وهو الأصح كما صرح السيوطي في الاتقان ، (٥) وطبقه عملياً في تأويل بعض آي القرآن (٦).

فالمحلي يخصص مثلاً في تفسيره لآيتي العلق : « أرأيت الذي ينهى . عبداً إذا صلى »، الناهي بأبي جهل ،والعبد بالنبي محمد (ص) (٧) . وذلك وارد في سبب النزول (٨) ،إلا أنه بحسب أصول التفسير ينبغي حمله على عمومه ،

(١) نفسه ١/١٠٣ .

(٢) العلق : ٣-٤ .

(٣) تفسير الجلالين، ص ٥١٥ .

(٤) الطوسي : التبيان ٣/٩٣، ٢٣٤ والزركشي: البرهان ١/٣٢ والسيوطي: الاتقان ١/٢٩، والصاوي : حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٣٣٤، وشحاتة : القرآن والتفسير، ص ٦٨ .

(٥) ١/٢٩ .

(٦) انظر تفسيره للآية ٥٨ من سورة النساء، ص ٧٢، وراجع الحديث عن ذلك في القسم الأول من هذا البحث، ص ١٣٣-١٣٤ .

(٧) تفسير الجلالين، ص ٥١٥ عند تفسير الآيتين: ٩ و ١٠ من سورة العلق .

(٨) انظر الطبري : جامع البيان ٣٠/١٦٣ والبيضاوي: اسرار التنزيل ٤/٤١٣ وابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٤/٥٢٨ والسيوطي: لباب النقول في اسباب النزول، ص ٢٣٩ .

بحيث يتناول كل من نهى عن الصلاة عبداً من عباد الله ،ويدخل في ذلك أبو جهل في نهيه لرسول الله (ص). فهذا هو الأولى في تأويل الآيتين ،وبه صرح غير واحد من قدامى المفسرين ومُحَدثيهم .قال فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) « ولايمتنع أن يكون نزولها في أبي جهل ، ثم يعم في الكل ».(١) وقال البيضاوي (ت٦٨٥هـ) ، في تعليقه على ماذكره الحسن البصري. من أن أمية بن خلف : « حكم الآية عام ، فإن كان ما حكي عن أمية واقعاً فحكمها شامل له »(٢) . وعلى هذا الأساس من شمول المعنى وعمومه . فسر مصطفى المراغي — وهو من مدرسة محمد عبده ومن روادها الأوائل (٣).— الآيتين الكريمتين فقال : «أي : أخبرني عن حال هذا الأحمق ،فإن أمره لعجب ،فقد بلغ به الكبر والتمرد والعناد أن ينهى عبداً من عبيد الله عن صلاته .ويعتقد أنه يجب عليه طاعته ، وهو ليس بخالق ولا رازق له ..» (٤) . فهذا التفسير كما ترى لايقف عند سبب النزول ،بل يتعداه إلى كل من ينطبق عليه مفهوم الآيتين ويتناوله . وهو أمر يتناسب وخلود النص القرآني وعدم تحدده بزمن معين. وهو المنهج الذي التزمت به مدرسة محمد عبده ،إذ كانت تلحظ عموم القرآن وشموله في تفسيرها للآي ، على ما صرح به صاحب المنار .(٥).

وإذا كان « الخطاب — بأرأيت — لكل من صلح للخطاب » كما يقول أبو السعود العمادي (٦) المفسر (ت ٩٨٢هـ) ،فإن من المناسب أن يقال : إن المراد من الآيتين أشمل من أن يخصص بشخص معين.

وكأن الصاوي أراد ان يعتذر للمحلي حين تأول كلامه فقال : « قوله : نزل في أبي جهل » أي : والعبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب ، فكل من

(١) الرازي : التفسير الكبير ٣١/٢٠ .
(٢) البيضاوي : اسرار التنزيل : ٤ / ٤١٤ .
(٣) الذهبي : التفسير والمفسرون ٣ / ٢٥٦ .
(٤) تفسير المراغي : ٣٠ / ٢٠٣
(٥) رشيد رضا : تفسير المنار ١/١٧٩-١٨٠ .
(٦) ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٥/٢٧٤ .

اعتقد أنه غني عن ربه طرفة عين فقد تحقق بالطغيان والكفر ، لأن كل مخلوق مفتقر لخالقه في حركاته وسكناته » (١) .

٦. وجعل تفسير الجلالين الضمير في « تعزروه وتوقروه » من قوله تعالى : « لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا» (٢) مرددا بين أن يكون لله أو لرسوله . مع أن في رده إلى الرسول تمزيقاً للسياق، الذي يشعر بأن ضمائر الغائب في الآية ترجع كلها إلى الله وحده وليس شيء منها راجع إلى الرسول بحال ، حتى قال الزمخشري : « والضمائر لله عز وجل ، والمراد بتعزيز الله : تعزيز دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم ومن فرق بين الضمائر فقد أبعد » . (٣) وهو ماقاله النسفي ايضا (٤) .

٧. وقال الجلالان بزيادة عدد من الحروف والاسماء في القرآن ، وهذا يبدو بجلاء لمن تتبع مواردها في تفسيرهما . ولاخلاف في زيادة هذه الحروف زيادة اعرابية من مثل « ما » في قوله تعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم » (٥) اذ لم يكن القدماء يذهبون إلى أنها زائدة في النظم أو المعنى ، لأن هذه الزيادة قد تقع في الشعر للضرورة التي تقتضيها موسيقى أوزانه . وليس الامر كذلك في القرآن ، لمباينته الشعر في موسيقاه . وقد ذهب السيوطي إلى ان مثل زائدة في قوله تعالى : « فان آمنوا بمثل ماآمنتم به فقد اهتدوا» (٦) . مع أن هذا الوجه لايخلو من ضعف لأنه « اذا أمكن حمل كلام الله على فائدة ، فلا يجوز حمله على

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٣٣٤ .

(٢) الفتح : ١٠ .

(٣) الزمخشري : الكشاف ٣/١٣٦ .

(٤) النسفي : تفسير النسفي ٤/١٥٨ .

(٥) آل عمران : ١٥٩ .

(٦) البقرة : ١٣٧ . وانظر اعتباره « من » زائدة في قوله تعالى : « وما أغني عنكم من الله من شيء » يوسف : ٦٧ ، مع أنها يمكن أن تحمل على التبعيض، فيكون المعنى : لاأغني عنكم من الله ولو شيئاً يسيراً . واذا لم يكن قادراً على القليل، فهو غير قادر على الكثير بطريق الأولويه .

الزيادة . وزيادة الاسم أضعف من زيادة الحرف » . (١) والقول بالاقحام في القرآن نرفضه ، لأن الاقحام من علل الشعر ، والقرآن لاتعرض له علة.

ولهذا رأى الطوسي ان الأجود « أن يكون المعنى : بمثل هذا . ولاتكون — مثل — زائدة ، كانه قال : فان آمنوا على مثل إيمانكم ، كما تقول كتبت على ماكتبت ، وبمثل ماكتبت . كأنك تجعل المثال آلة يتوصل بها إلى العمل » (٢) أو بعبارة أخرى ان المثلية هنا يراد بها العينية ، كأنه قيل : فان آمنوا بعين ما آمنتم به فقد اهتدوا . وهذا كما ترى في غاية الوضوح والقرب . وذهب الزمخشري إلى ان ذلك تبكيت لهم ،وتأوله على معنى « فان حصلوا دينا آخر مثل دينكم مساويا له في الصحة والسداد فقد اهتدوا » ،ونظر له للرجل الذي تشير عليه : هذا هو الرأي الصواب . فان كان عندك رأي له بـ« قولك أصوب منه فاعمل به ، وقد علمت ان لاأصوب من رأيك ولكنك تريد تبكيت صاحبك ، وتوقيفه على أن مارأيت لارأي وراءه » (٣) وهو محط بلاغي دقيق .

وكنا قد اشرنا عند الكلام على منهج الجلالين النحوي إلى مثال من رأيهما بزيادة الحروف ،وضربنا الكاف مثلا لذلك وبينا امكان حملها على الأصالة دون الزيادة ،مادام لذلك وجه سائغ في اللغة . فلا نري ضرورة لاعادته هنا .

ورحم الله السيوطي إذ قال في خاتمة تفسيره لسورة الاسراء ، وهو آخر مافسره من القرآن ، واتم به مابدأ به شيخه المحلي : « فرحم الله امرأ نظر بعين الانصاف اليـه ووقف فيه على خطأ فأطلعني عليه » . ثم انشد هذين البيتين من نظمه :

---

(١) الطوسي : التبيان ١/٤٨٤ .

(٢) الطوسي : التبيان ١/٤٨٣ .

(٣) الزمخشري : الكشاف ١/٢٤١ .

حمدت الله ربي اذ هـداني لما أبديت من عجزي وضعفي
فمن لي بالخطا(١) فأرد عنه(٢) ومن لي بالقبول ولو بحرف(٣)

فكان السيوطي بهذا الكلام منصفا لنفسه ولقارئي تفسيره كل الانصاف إذ لم يدع ان كل ماأورده في تفسيره صحيح وراجح . بل فتح المجال للناس في أن يقولوا كلمتهم فيه ، ويبدوا وجهات نظرهم تجاهــــه . واذا كان السيوطي لم يدرك هذه الكلمات التي رأيناها، فلا نشك في أن قارىء الجلالين سيستفيد منها مثلا لما يؤخذ على هذا التفسير القيم المفيد ، الذي نال على ايجازه ــ عناية المعاصرين خاصة : لما وجدوا فيه من فوائد لاتنكر.

---

(١) أصلها بالهمز، وخففها لضرورة الوزن .
(٢) يريد: أرجع عنه، وأصلحه .
(٣) تفسير الجلالين، ص ٢٤٣ .

المصادر

١ . أحمد بدوي ـــ الدكتور ـــ : من بلاغة القرآن ، ط٣ مكتبة نهضة مصر (لم تذكر سنة الطبع) .

٢ . أحمد مطلوب ـــ الدكتور : مصطلحات بلاغية ، ط١ ، مطبعة العاني ـــ بغداد ١٩٧٢ .

٣ . الآلوسي : شهاب الدين محمود ـــ روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني ، ط١ ، مطبعة بولاق ١٣٠١ هـ .

٤ . ابن الأنباري : كمال الدين عبد الرحمن بن محمد (أ) الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين ، بتحقيق محيي الدين عبد الحميد ط٣ مطبعة السعادة ـــ مصر ١٩٥٥ .

(ب) البيان في غريب اعراب القرآن . بتحقيق الدكتور طه عبد الحميد ومراجعة مصطفى السقا ـــ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ـــ القاهرة ١٩٦٩م .

٥ . الباقلاني : أبو بكر محمد بن الطيب ـــ إعجاز القرآن ، بتحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف ـــ مصر ١٩٦٣ .

٦ . البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ـــ كتاب الضعفاء الصغير ، بتحقيق محمود إبراهيم زايد ـــ (مع كتاب الضعفاء والمتروكين للنسائي) دار الوعي ـــ حلب ١٩٧٥ .

٧ . البيضاوي : ناصر الدين عبد الله بن عمر ـــ أنوار التنزيل واسرار التأويل مطبعة مصطفى محمد ـــ القاهرة (لم تذكر سنة الطبع) .

٨ . الثعالبي : أبو منصور عبد الملك بن محمد ـــ فقه اللغة وسر العربية ، مطبعة الاستقامة ـــ القاهرة ١٩٥٩ .

٩ . الجرجاني : أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن ـــ دلائل الأعجاز عاق عليه محمد عبد المنعم خفاجي ، مطبعة الفجالة الجديدة ـــ القاهرة ١٩٦٩

١٠. الجلالان : السيوطي والمحلي ،تفسير الجلالين ، المطبعة اليوسفية — مصر ١٩٦٧.
١١. الرازي : أبو عبدالله فخر الدين محمد بن عمر— التفسير الكبير ، المطبعة البهية — مصر (لم تذكر سنة الطبع).
١٢. الرماني : أبو الحسن علي بن عيسى .
(أ) كتاب معاني الحروف ، بتحقيق الدكتور عبد الفتاح شلبي ، مطبعة دار العالم العربي— القاهرة ١٩٧٣.
(ب) النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن) بتحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، ط٢ مطبعة دار المعارف — مصر ١٩٦٨ .
١٣. الزركشي : بدر الدين محمد بن عبدالله — البرهان في علوم القرآن بتحقيق أبي الفضل إبراهيم ، ط ١ دار احياء الكتب العربية — القاهرة ١٩٥٧ .
١٤. الزمخشري : جارالله محمود بن عمر الكشاف عن حقائق التنزيل ،مطبعة البابي الحلبي — مصر ١٩٤٨ .
١٥. ابن الزملكاني : كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم — التبيان في علم البيان ، بتحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي ط ١ ،مطبعة العاني — بغداد ، ١٩٦٤.
١٦. أبو السعود : محمد بن محمد العمادي — إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، مطبعة محمد علي صبيح—القاهرة (لم تذكر سنة الطبع) .
١٧. السكاكي : أبو يعقوب يوسف ابن أبي بكر — مفتاح العلوم ، ط ١ مطبعة البابي الحلبي — مصر ١٩٣٧.
١٨. ابن سنان : محمد بن عبدالله الخفاجي — سر الفصاحة بتحقيق علي فودة . ط ٢ ، م . الرحمانية — مصر ١٩٣٢ .

١٩. السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (أ) الاتقان في علوم القرآن مطبعة البابي الحلبي ؛ ط ٣ مصر ١٩٥١.
(ب) لباب النقول في أسباب النزول ، ط ٢ مطبعة البابي الحلبي — مصر ١٩٥٤ .
٢٠. شحاتة : الدكتور عبدالله محمود — القرآن والتفسير ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب — القاهرة ١٩٧٤.
٢١. الصاوي أحمد بن محمد — حاشية الصاوي على تفسير الجلالين مطبعة الاستقامة — القاهرة ١٩٥٦ .
٢٢. الطبرسي أبو علي الفضل بن الحسن — مجمع البيان في تفسير القرآن؛ دار مكتبة الحياة — بيروت ١٩٦١ .
٢٣. الطبري أبوجعفرمحمدبنجرير — جامع البيان عن تأويل آي القران، ط ٢ دار المعرفة — بيروت ١٩٧٢ بالأوفست عن طبعة بولاق .
٢٤. الطوسي : أبو جعفر محمد بن الحسن — التبيان في تفسير القرآن، بتحقيق وتعليق أحمد شوقي الأمين وأحمد حبيب ، المطبعة العلمية — النجف ١٩٥٧ .
٢٥. عائشة عبد الرحمن— الدكتورة—: التفسير البياني للقرآن الكريم ، ط٢ دار المعارف — مصر ١٩٦٦.
٢٦. العلوي : يحيى بن حمزة — الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز ، مطبعة المقتطف —مصر ١٩١٤ .
٢٧. الفراء يحيى بن زياد — معاني القرآن ، بتحقيق محمد علي النجار وزميليه ط١ مطبعة دار الكتب — مصر ١٩٥٥
٢٨. القزويني : محمد بن عبد الرحمن
(أ) الايضاح في علوم البلاغة ، مطبعة السنة المحمدية .— القاهرة (لم تذكر سنة الطبع) ،أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد .
(ب) التلخيص في علوم البلاغة ، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي ، المكتبة التجارية الكبرى — مصر (لم تذكر سنة الطبع).

٢٩. ابن كثير : عماد الدين إسماعيل–تفسير القرآن العظيم ،مطبعة البابي الحلبي– مصر (لم تذكر سنة الطبع).

٣٠. الكرماني : محمود بن حمزة – أسرار التكرار في القرآن ، بتحقيق عبد القادر أحمد عطا، ط١دار الطباعة المحمدية القاهرة١٩٧٤ .

٣١. لوبون : غوستاف–روح الاجتماع ، ترجمة أحمد فتحي زغلول– القاهرة ١٩٠٩ .

٣٢. ابن مجاهد:أبو بكر أحمد بن موسى كتاب السبعة في القراءات ، بتحقيق الدكتور شوقي ضيف. ط١ دار المعارف.–مصر١٩٧٢.

٣٣. المراغي : أحمد مصطفى – تفسير المراغي . ط٣ مطبعة البابي الحلبي – مصر ١٩٦٢ .

٣٤. النسائي : أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب – كتاب الضعفاء والمتروكين بتحقيق محمود إبراهيم زايد(مع كتاب الضعفاء الصغير للبخاري) دار الوعي – حلب ١٩٧٥ .

٣٥. النسفي : أبو البركات عبد الله بن أحمد – تفسير النسفي ، مطبعة البابي الحلبي – مصر (لم تذكر سنة الطبع).

(٣٦). ابن هشام : جمال الدين عبد لله بن يوسف–مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، بتحقيق محيي الدين عبد الحميد – القاهرة (لم تذكر المطبعة ولا سنة الطبع) .